كتاب البرهان

للاب توتل اليسوعي

ان القس منسى يوحنا ، راعي الكنيسة القبطية بلوى ، وصاحب مجلة « الفردوس » ، زار فلسطين سنة ١٩٢٧ ، وبحث فيها عن الكتب القديمة ؛ فعثر على نسخة مخطوطة لكتاب لاهوتي جليل موقع باسم القديس اثناسيوس الرسولي (٢٩٨ — ٣٧٣) ، احد مصابيح الكنيسة الجامعة ، ومجد الشرق عموماً وفخر الكنيسة المصرية خصوصاً . فدفعته الغيرة الى نشر ذلك الكتاب اولًا في مجلته ، ثم على حدة في طبعة ثانية ، « لئلا يقال عن الكنيسة القبطية ، صاحبة الشأن ، انها واقفة مكتوفة الايدي لا تبدي حراكاً ، تترك لغيرها من الافرنج او السوريين العناية بنشر وترجمة كتب اثناسيوس وغيره من الآباء . . » وان القس يوحنا من تُبَّع المونوفيسيين القائلين بوحدة الطبيعة بالمسيح . فلماً اخذ ينشر كتاب البرهان وجد فيه عبارات واقوالًا لا تترك مجالًا للريب بان قائلها معتقد ان في المسيح طبيعتين . فعزّ على حضرة الناشر ان ينسب هذه العبارات والاقوال الى القديس اثناسيوس ، لان تلك النسبة حجةٌ واضحة تشهد عليه وعلى من ذهب مذهبه بانهم ، عند قولهم بوحدة الطبيعة ، انفصلوا عن تعليم الكنيسة العامّ وعن ايمان الآباء الرسوليين الصحيح . فلم يراعِ حقوق المخطوط الهرم ، بل عمل فيه المقصّ ، وحذف منه ما لم يره موافقاً لتعليم المنوفيسية وقال (ص ٤٣) ان معرّب الكتاب وناسخه هو احد الارمن الارثوذكس ، وهو الذي دسّ فيه هذه العبارة عن الرب يسوع انه « مسيح واحد بقوام ازلي وطبيعتين » وقال ايضاً : « لا ريب ان اثناسيوس لم يكتب ذلك ، فرأينا من المناسب ان نحذف تلك الجملة . . . والدليل على ان تلك الكلمة من تلاعب النسّاخ انه مكتوب بعد تلك الزيادة في تلك النسخة حاشية مطوّلة لاحد النسّاخ في اثبات الطبيعتين فحذفناها ايضاً » وقال : في موضع ظهر فيه الايمان بالطبيعتين باجلى تبيانه لا من بعض الالفاظ فقط ولكن من الفصل كله :

« ادخل الناسخ جملة تثبت طبيعتين ومشيئتين للسيد المسيح موهماً انها من

كلام اثناسيوس ومن يقرؤها يتصوَّر ان القديس اثناسيوس كان احد اعضاء مجمع خلكدون الذين حضروا مناقشاته ونابوا عن بابا رومية في الدفاع عن الطبيعتين . على ان اثناسيوس كان قبل ذلك بمدة ، لذلك حذفنا تلك الجملة لتأكدنا انها محشورة في كلام القديس بلا مناسبة » (ص ٤١) وجاء مثل هذه الاقوال في الصفحات ٥٩ ، ٦٣ ، ٧٥ ، ٨٧ ، وكلها تذهب على وتر واحد ، وغايتها الاثبات ان ما استشهد به كتاب البرهان على الايمان بالطبيعتين غير ممكن ان يكون من القديس اثناسيوس .

واننا لنأسف لبتر المؤلَّف الجليل على يد حضرة الاب الناشر ، ونؤاخذه على ركوبه متن الشطط في ميدان النشر العلمي . لانّ مهمة الناشر انما هي رواية المخطوط باصله وفصله ، وتعريف القرّاء بصورته المادية بوصف حجمه وطوله وعرضه ، وعدد صحائفه واسطره ، ونوع خطه وتجليده ، مع التنويه بمحل الاكتشاف عليه ، وذكر اسم اصحابه ، ليتسنى من ثمّ للمدققين ان يراجعوه عند الحاجة . وقد يضيف الناشر فضلًا على افضاله اذا توفّق الى معرفة نسخ غير نسخ المخطوط الذي بين يديه ، وقابل بينها ، واشار الى مواضع الاختلاف في المتن المؤدي الى التغيير في المعنى ، وشرح غوامض الكتاب مع التلويح الى ما هو اصلي من المؤلف وما هو تعليق وزيادة من الناشر .

اما حضرة الاب منسى يوحنا فلم يذكر اصل المخطوط الذي نشره ولم يتكلف مراجعة كتاب «المخطوطات العربية لكتبة النصرانية» للاب شيخو ، ولو فعل لاكتشف نسخاً غير النسخة التي حصل عليها وتسنى له المقابلة بينها . فلم يدقق ولم يفحص بل قطع وحذف من كتاب البرهان ما لم يجده موافقاً لتعليم المونوفيسية وقال : اليكم تعليم اثناسيوس الرسولي .

وان لكتاب البرهان نسخاً معروفة كنسخة رومية ، ونسخة الاب سباط (عدد ٤٩) وهي مؤرخة في السنة ١٦٨٦ ، ونسخة الآباء البيض في مدرسة القديسة حنة الاورشليمية ، ونسخة مكتبتنا الشرقية المؤرخة في ١٦٨١ . وقد قابل الدكتور غراف بين هاتين النسختين فوجدهما كالتوأمين من اصل واحد او كأن احداهما قد نسخت عن الاخرى لما بينهما من التشابه . وفي هذا الكتاب

اربع مقالات واليك عناوينها كما صدرت في نسخة مكتبتنا (رقم ٤٦٨).

١) كتاب البرهان في تحقيق الايمان مما وضعه ابينا الجليل في القديسين الاب الكبير اثناسيوس الرسولي بطريرك الاسكندرية الذي وضعه على ان للخلق اله واحد لا اله الا هو وثلثة اقانيم وعلى تجسد الكلمة ومواهبه الشريفة للمؤمنين.

٢) مقالة وضعها الاب اثناسيوس بطريرك الاسكندرية على القياسات والشهادات في تجسد ابن الله المحيي.

٣) مقالة . . . في الرد على اليهود من كتب الانبياء وتكذيب لهم وخزيا.

٤) مقالة في الشهادات على ان المسيح هو ابن الله الازلي من كتب جميع الانبياء القديسين ومن اسفار العتيقة وعلى صحة تجسده وعجبته مما وضعه ابانا اثناسيوس.

واذا صح وتبيّن لك ايها القارئ اللبيب ان كتاب البرهان ، بالرغم من عنوانه الموسوم ليس هو من القديس اثناسيوس ، وغير ممكن ان يكون منه ، بل هو من مؤلف عاش عدة قرون بعد اثناسيوس ، وان هذا المؤلف هو كاثوليكي ، ازداد اسفك على مشقات حضرة الاب منسى يوحنا وقد ذهبت سدىً وهو يحاول « تبرير » القديس اثناسيوس من التعاليم الكاثوليكية ، ووددت لو صرف الناشر همته الشماء الى غير ذلك من الاعمال المؤدية الى التقريب بين الكنيسة القبطية الارثوذكسية والكنيسة الكاثوليكية الرومانية

ان كتاب البرهان ليس هو للقديس اثناسيوس

قال الاب شيخو (المشرق ٧[١٩٠٤]:٤٨٨) : « كتاب البرهان سفر جليل واسع عن التوحيد والتثليث بيدَ اننا لم نجده في اعمال القديس اثناسيوس وقد اطلع ابراهيم الحاقلاني الشهير على نسخة منه في رومية نُسب فيها للقديس بطرس اخي القديسين باسيليوس وغريغوريوس نيصص . ولكن ليس هو للقديس اثناسيوس ولا للقديس بطرس المذكور وانما هو احدث عهداً . » وجاء في مقال للخوري يوحنا مرتا (المشرق ٥[١٩٠٢] : ص ٤٨١) على الشهادات العربية في المزارات الفلسطينية : ان كتاب البرهان يطلعنا على وجود كنائس في بعض المزارات الفلسطينية لم يقم الى الآن دليل قاطع على وجودها في القرن الرابع ككنيسة زكريا ، والرعاة ، ونهر الاردن ، والمجدل ، وجناسر ، والكرسي ، ونائين ، وطور ثابور ، وموضع الغنم ، اي بركة بيت حسدا في اورشليم .

فذكرها اذًا يدلّ على ان صاحبها عاش بعد عصر القديس أثناسيوس. فاذًا ليس كتاب البرهان للقديس اثناسيوس.

وروى كتاب البرهان (ص ٢٤٠ من مخطوط المكتبة الشرقية) « ان ملوك النصارى من بعد زمان طويل بنوا كنيسة لمريم القديسة في مدينة القسطنطينية عظيمة جدًا ، رفيعة شريفة وارسلوا يحملون اليها تابوت السيدة بما فيه من الاكفان » ومن البديهي ان القديس اثناسيوس لم يكن قد وقف على هذه الحوادث ولم يستطع ان يذكرها . فاذًا ليس كتاب البرهان لاثناسيوس .

وقد عالج هذا المشكل الدكتور غراف الكاهن الكاثوليكي في مجلة « الشرق المسيحي » الالمانية ، وتخطّى الى ابعد مما بلغنا اليه بقولنا ان مؤلف كتاب البرهان ليس هو القديس اثناسيوس ، واهتدى بادلّة متنوعة الى التقرير ان المؤلف المذكور كان متضلّعاً من اللغتين العربية واليونانية ، وانه كتب كتابه بالعربية ، ونحا فيه نحو المؤلفين اليونان في الاستشهاد بالآيات الكتابية والليتورجية وفسرها بالمعنى الكاثوليكي . ممّا يدلّ على انه كان عربيّ اللغة يوناني الطقس كاثوليكي الايمان.

انه كتاب البرهان عربي الاصل

ومن الادلّة التي لا مردّ عليها الشاهدة بان كتاب البرهان عربي الاصل ما جاء في نهاية الفصل الثاني منه المخصوص بالشهادات المبينة حقيقة تجسد الكلمة في الطبيعة البشرية من العذراء عليها السلام ، وهي بشر ، ولها في العهد القديم رسوم وآيات تتنبأ عليها بالفاظ مؤنثة وهذا التأنيث لا معنى له الا لقرّاء العربية. فاذا من استشهد به كان عربيّ اللغة . واليك المتن بحرفه :

« ورسم آخر ايضاً عجيب جدًا ، في مريم العذراء ، وهو ان الله امر موسى ان يعمل اشيا خواص معجبة ، وجعلها كلها مؤنثة ، وهي مجمرة ذهب مؤنثة ، والبلاطين [كذا] التي كتبها الله باصبعه مؤنثة ، وتابوت الكنيسة مؤنثة ، والمايدة التي يوضع عليها خبز القربان مؤنثة فاي شيء اعجب من هذا المثل لمريم العذراء على وجه التأنيث ؟ »

وفي انشاء الكتاب غير ذلك من العبارات الدالة على اصله العربي تستلفت النظر وقد انتبه اليها حضرة الاب منى لكنه لم يؤوّلها بالتأويل الصحيح. جاء في كتابه (ص ٦٣) « دبر كلمة الله خلطته بالناسوت باتم العدل مع تمام الرحمة والقدرة فمكر بابليس كما مكر بآدم وكان خير الماكرين » فصدق اذ قال ان العبارة « خير الماكرين » هي مقتبسة من القرآن. (٣، ٤٧، ٨، ٣٠) لكنه ضلّ اذ قال انها تدل على تصرّف النسّاخ. وما عسى ان يستفيد النسّاخ من دسّ العبارات القرآنية بالمتن؟ فاذًا انها وردت عن المؤلف سهوًا وابتكارًا وهو وضع كتابه بالعربية. فليس اذن كتاب البرهان من تأليف القديس اثناسيوس. وقد تنجلي هذه الحقيقة باجلى مظاهرها اذا ما انتقلنا في البحث من تعابير الكتاب ولغته الى النظر في فحواه. فكأنه وضع خصيصاً للردّ على البدعة المنوفيسية، وهذه لم تكن ظهرت على ايام القديس اثناسيوس.

اذن فالكتاب ظهر من بعد القرن الرابع ولغته العربية تدعونا الى الارتقاء به الى ما بعد الفتح الاسلامي وانتشار اللغة العربية في الشرق، وتاريخه في نظر الاب شيخو يكون في القرن التاسع او العاشر. وقال الدكتور غراف انه لسعيد ابن البطريق الذي توفي في ١١ ايار سنة ٩٠٤ باسم اتيخيوس البطريرك الملكي الاسكندري.

ان كتاب البرهان هو كاتوليكي التعليم

من اوضح البراهين التي جاء بها الدكتور غراف لاثبات قوله ان مؤلف كتاب البرهان هو اتيخيوس المعروف بسعيد ابن البطريق ان كتابه المعنون «التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق» الذي نشره الاب شيخو سنة ١٩٠٥ يتخلله مستطردات تعليمية لاهوتية خرجت من قلم اتيخيوس، اذا قوبل بينها وبين بعض مقاطع كتاب البرهان وجدت كأنها منسوخة عن اصل واحد، او بالاحرى ادّت بنا الى الاعتقاد ان ابن البطريق مؤلف كتاب البرهان وكتاب التاريخ المجموع، استعمل بعض ما كتبه في كلا الكتابين المذكورين. وما لنا الّا ان نروي النصين الواحد تجاه الثاني لنكون على بينة من امرهما:

من التاريخ المجموع لابن البطريق

ان عظيم تدبير الله وكمال عدله وجلال رحمته بعث كلمته المخالفة التي بها خلق كل شيء وكونه التي هي من جوهر ليس بمخلوق ولكن مولودة من الله قبل الادهار كلها . لم يكن الله بلا كلمة وبلا روح قط ولا كانت الكلمة بريئة منه قط ولا من روحه المخالفة ومن جوهره الثابت الذي لم يزل ولا يزول وتجسدت من مريم العذراء جارية طاهرة مختارة من الاصل المبارك من ذرية ابرهيم وولد اسرائيل وسبط يهوذا وفخذ داود واصطفاها الله لهذا التدبير من نساء العالمين وطهرها بروح القدس روحه الجوهرية حتى جعلها اهلاً لحلول كلمة الله الجوهرية . . . (ص ١٦١)

من كتاب البرهان (ص٩٩)

فكان من عظيم تمام التدبير وجليل الرحمة وكمال العدل ورفيع الحكمة ان الله بعث كلمته المخالفة التي بها خلق كل شيء التي هي من جوهره وليست مخلوقة بل مولودة منه من قبل الادهار كلها ولم يكن الله بلا كلمته وروحه قط ولا عن روحه ولا روح القدس لم تكن في غير الله وكلمته لانها روحه المخالفة وهي من جوهره فهبطت كلمة الله المخالفة بذواتها القائم الثابت الذي لم يزل ولا يزول والتحمت من مريم العذراء جارية طاهرة مختارة عن الاصل المبارك من ذرية ابرهيم وولد اسرائيل وسبط يهوذا وفخذ داود اصطفاها الله لهذا التدبير من نساء العالمين وطهرها بالروح القدس التي جعلتها اهلاً لحلول كلمة الله الجوهرية بها .

فترى من المقابلة ان الفرق بين متن ومتن زهيدٌ جداً ، وامثال ذلك الاتصال بين الكتابين كثيرة ، والنتيجة ان للكتابين مؤلفاً واحداً هو ابن البطريق . وهو قبل ان يسرد كلامه المذكور وطأ له في التاريخ المجموع بقوله (ص ١٦١) « ان ائمة الضلالة اعني نسطوريوس وافتيخيوس وديسقورس وسويرس ويعقوب البراذعي واشياعهم . . . يهمزون جهلاً منهم باتحاد لاهوت سيدنا يسوع المسيح بناسوته وسقط كل واحد منهم في وجه من وجوه الخلطة فتمسك به وقد رأيت ان افصح وجوه الخلطة وابين ذلك لتقف على فساد قولهم . . . »

فهذا الكلام شاهد على ان المؤلف كتب ضد الهراطقة المذكورين ومن جملتهم اوتيخا . فاذا هو من القائلين بالطبيعتين وهو على الايمان الكاثوليكي . ولما كان كتاب البرهان تأليفه . فلا عجب ان نجد فيه التعليم الكاثوليكي ولا عذر لمن يتجرأ على حذف ما يجده فيه مخالفاً لاقوال المونوفيسية .

هذا ما رمنا تبيانه في هذا المقال ، والله نسأل ان ينوّر القلوب بضياء روحه القدوس ، فنتقدم اجمعين على مطالعة الآباء ملافنة البيعة ونهتدي باقوالهم .